أ.د. سمير الهضيبي
المدير العام للمركز العربي الدولي للنشر والترجمة

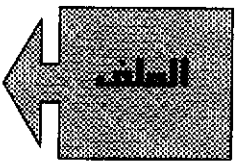

التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية.. المأزق والمخرج!

منذ قرابة نصف قرن كان السؤال الحائرُ في عقولنا هو: لماذا ونحن مسلمونَ على هذا القدْر من الانحطاط والتخلف، بينما الغرب متقدم عسكريا واقتصاديا وعلميا، بل وحتى اجتماعيا وأخلاقيا.؟

وكانت الإجابة البسيطة التي نتلقاها من علمائنا أن السبب يرجع إلى أننا تركنا ديننا فتخلفنا. ولم تكن هذه الإجابة مقنعة لعقلي في ذلك الوقت، لأنني رأيت من يتمسكون بشعائر الدين لم ينجحوا في التخلص من عوامل التخلف التي نشأوا عليها. فمازالوا شأنهم في ذلك شأن مجتمعهم المبتعد عن شعائر الدين، يقدسون المال ويقيسون به الرجال، ولا يعرفون قيمة الوقت، ولا يصدقون الوعد ولا القول، ولا يحسنون إلى جارهم ولا إلى أقربائهم، فضلاً على أن يحبوا لهم ما يحبون لأنفسهم، قلوبهم فارغة من جوهر الإيمان ونفوسهم جائعة فكل مُرٍّ حلو.

وفي أواخر الخمسينيات التقتيت بالأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، وقدم لنا تفسيرا لهذا الأمر مفاده: أن الأمم جميعها خاضعة لسنة الله ونواميس الكون التي منها أن للنهضة شروطاً إذا ما تحققت تنهض الأمة وتدفع في بناء حضارتها التي تستمر إلى ما شاء الله حتى تدب فيها عوامل الانحلال فتبدأ في السقوط. وأن كل حضارة تبدأ بقوة روحية دافعة تصنع جيل الآباء (مرحلة الروح)، تليها أجيال من الأبناء، قد أحسن الآباء تنشئتهم، تزدهر في عهودهم الحياة، ويظهر فيها العمران والمدنية والنشاط العقلي (مرحلة العقل)، لكن الأبناء لا يرثون من آبائهم كل طاقاتهم الروحية، فجيل بعد جيل تضعف أرواحهم وعقولهم، بينما تنشط غرائزهم، حتى يأتي جيل تصبح الغرائز فيه أقوى من الروح والعقل، فتبدأ الأمة في السقوط تدريجيا (مرحلة الغريزة).

ويرى مالك بن نبي أن مرحلة الروح في الحضارة الإسلامية انتهت بمعركة صفين، وأن مرحلة الغريزة بدأت تدب في أواخر الدولة العباسية. وبالتالي فالأمة الإسلامية تعيش مرحلة الغريزة منذ عدة قرون، وأنه لكي تنهض الأمة من جديد وتدخل في دورة حضارية جديدة لابد أن تمر من جديد بمرحلة الروح، والتي فيها يسمو الإنسان على غرائزه وعلى موروثاته العقلية، حيث يدخل في معاناة لتصفية الأفكار الموروثة، والتي تكمن وراء تخلفه ليستبدلها بأفكار تعبر عن جوهر الإسلام الحقيقي، الذي جعل شرط الإيمان أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه، والذي جعل للإنسان منذ مولده حقا في بيت مال المسلمين حتى وفاته. وجعل في أموال الإغنياء حقوقا للفقراء تكاد تساويهم معهم في معيشتهم، وجعل الصدق فرضا كالصلاة والصيام، وجعل العدل شعارا حتى مع الأعداء. وجعل للعمل قيمة في ذاته، وللوقت وحفظ الوعد قداسة، إلى غير ذلك من المفاهيم التي تعبر عن جوهر الإسلام.

المـأزق!!

تحديات خارجية:

واقع العالم الإسلامي اليوم أنه رغم تفككه وتقطيع أوصاله وتخلفه وضعفه يحاول أن ينهض كمارد بدأ يستيقظ من سبات طويل، ولكن العالم يرقب بحذر هذه اليقظة لكي لا تشكل خطرا عليه، لأن القوة الكبرى في العالم لا تريد لقوة جديدة أن تظهر، يستوي في ذلك العالم الغربي المسيحي بأجنحته المختلفة، أو العالم الآسيوي الهندي والصيني والياباني بأجنحته المختلفة، ولما كانت الحضارة الغربية هي المهيمنة اليوم اقتصاديا وتكنولوجيا وعسكريا فإننا سنركز على أهم تيارين في هذه الحضارة، واللذين يشكلان التحدي الأكبر الخارجي أمام العالم الإسلامي اليوم.

التيار الأول:

ويعبر عنه فرنسيس فوكوياما في كتابه «نهاية التاريخ وخاتم البشر». حيث يراهن فوكوياما على أن التكنولوجيا الحديثة في ظل الرأسمالية قد أتاحت إمكانية تراكم الثروة بغير حدود، وبالتالي إمكانية إشباع قدر متزايد دوما من الرغبات الإنسانية وانتشار الثقافة الاستهلاكية في العالم كله، هذه الثقافة الاستهلاكية تقود العالم إلى تغيير أشكاله التقليدية للتنظيم الاجتماعي، حيث يتحول الولاء تحت ضغوط منطق الاقتصاد والحاجات المتزايدة من الولاء إلى القبيلة أو الطائفة أو العائلة أو رجال الدين إلى الولاء إلى مصدر الرزق والحصول على المال.

ويعارض فوكوياما ما قاله هيجل من أن رغبة الإنسان في نيل التقدير والاعتراف به ككائن بشري له كرامته، والتي زجت به على مر التاريخ في

معارك دموية مصيرية من أجل المنزلة؛ حيث أن ما يرضي البشر حقا ليس الرخاء المادي بقدر ما يرضيهم الاعتراف بوضعهم وكرامتهم، حيث يرى فوكوياما أنه قد تم أو يجب أن يتم استئناس هذه النزعة لنيل التقدير والاعتراف أو مايسمى بالنزعة «الثيموسية» عند الإنسان. لأن الثورة الفرنسية والأمريكية التي نادت بالمساواة بين البشر قد قضت على العبودية، وجعلت الناس سادة متساوين، فالديمقراطية الليبرالية تقدم للإنسان الاعتراف المتبادل على أساس من المساواة في الحقوق والواجبات، وبالتالي فالحروب والمنازعات من أجل الحصول على الاعتراف والتقدير سواء اعتراف الآخرين بالآلهة التي نعبدها أو بالجماعة التي ننتمي إليها على أساس من اللغة أو الثقافة أو العرق فانه لم يعد هناك مبرر لها، لأن المساواة التي تكفلها الديمقراطية الليبرالية تحل هذه الإشكالية.

ويستخف فوكوياما بقول نيتشة بأن الديمقراطية الحديثة والكلام عن المساواة لا تمثل مرحلة يصبح فيها عبيد الماضي سادة أنفسهم، وإنما تمثل انتصارا كاملا للعبيد وأخلاقيات العبيد حيث أصبح الناس يفتقرون إلى عزة النفس، ولا يشعرون بالخجل من عجزهم عن الإرتقاء فوق مستوى شهواتهم وحاجاتهم.

إن التيار الذي يمثله فوكوياما يدعو ويبشر بعالم جديد، تسوده شركات عملاقة متعددة الجنسيات، وتتلاشى فيه تدريجيا سيادة الدولة والنزعات القومية والوطنية والقبلية، وينزوي الدين ليصبح علاقة خاصة بين الفرد وربه وتتفكك المجتمعات التقليدية ليصبح مجتمع الفرد هو أسرته الصغيرة، وانتماؤه هو إلى عمله أو نقابته. أي أن يصبح المال هو الإله الجديد، وتصبح قيمة الفرد

بما يملك. وبالتالي يصبح سادة العالم الجديد الذي يبشر به فوكوياما هم أصحاب المال، أصحاب الشركات العملاقة.

ويصبح الإنسان الجديد مجرد حيوان اقتصادي مستهلك، ولاؤه للمال وعبادته للمال الذي يحقق له إشباع أكبر قدر ممكن من رغباته. وتختفي عند هذا الإنسان الجديد القدرة على التضحية برغباته والتي تصل به للتضحية بحياته من أجل أي مثل عليا أو عقائد يؤمن بها، وهذا يفسر الإنزعاج الشديد في الغرب من العلميات الاستشهادية في العالم الإسلامي ووصفها بالعلميات الانتحارية الإرهابية وتكريس الجهود للقضاء على منابعها.

ولا يخفى أن هذه الدعوة التفكيكية لكل ثقافات العالم باسم مابعد الحداثة، ترى في العالم الإسلامي بما يمثله الدين فيه من منظومة من التقاليد والعادات والمعتقدات عقبة يجب القضاء عليها لتسود هذه الثقافة الجديدة..

التيار الثاني:

ويعبر عنه صمويل هنتجتون في كتابه «صدام الحضارات» حيث يناقض فوكوياما فيرى أن النظرة الثيموسية للإنسان لن تموت وسيظل الإنسان في صراع دائم، وأن صراع المستقبل لن يكون كما كان في القرن العشرين صراعا اقتصاديا وأيديولوجيا، بل سيكون صراعا بسبب الإيمان والأسرة والدم والعقيدة، وكل العوامل التي تشكل ثقافة الحضارات المختلفة، والتي هي حقا ما يسهل على الإنسان أن يضحي بحياته من أجلها.

ويدعو ويبشر هنتنجتون بأن على الحضارة الغربية المسيحية أن تجمع قواها، وتنبذ خلافاتها، التي فرقت بينها في القرن الماضي، لكي يظل لها السيادة على الحضارات الأخرى طوال القرن الـ ٢١ على الأقل.

ويرى هنتنجتون أن الحضارات في العالم ستتبلور في ثلاث حضارات يحتدم الصراع بينها الحضارة الأولى هي الحضارة الغربية المسيحية، والتي تضم العالم المسيحي بأطرافه المختلفة، والحضارة الكونفوشيوسية الآسيوية، والتي مركزها الصين وستنضم إليها باقي الشعوب الآسيوية بما فيها اليابان، والحضارة الإسلامية التي تضم كل شعوب العالم الإسلامي.

ويرى هنتنجتون بأن الخطر من الحضارة الكنوفوشيسية يأتي من النمو الاقتصادي السريع لهذه الدول، وعلى الغرب أن يواجه ذلك باستمرار التفوق التكنولوجي والعكسري الذي يمكنه من فرض سيطرته السياسية والعسكرية طوال القرن المقبل على الأقل.

أما بالنسبة للحضارة الإسلامية فإن الخطورة كما يراها هنتنجتون تأتي من النمو السكاني السريع للعالم الإسلامي. ومن الهجرة المتتالية للمسلمين إلى مختلف بقاع العالم خاصة العالم الغربي. هذا، فضلا عن الصحوة الإسلامية التي تتجه بالعالم الإسلامي نحو الإسلام كمصدر للهوية والشرعية والقوة والأمل، والتي تجعل المسلمين محافظين على ثقافاتهم النابعة من دينهم، والتي تمنع استيعابهم داخل الثقافة الغربية.

وبينما يحذر من مخاطر توحد العالم الإسلامي يرى ضرورة إبقاء العالم الإسلامي على حاله من التفكك، ولو أدى ذلك إلى التدخل العسكري لتكريس فرقة الشعوب الإسلامية، لتظل خاضعة لنفوذ الغرب السياسي والاقتصادي والعسكري.

وبهذا نرى أن كلا التيارين، التيار الذي يعبر عنه فوكوياما والذي يكاد يتطابق مع المشروع الصهيوني لتفكيك كل القيم والتقاليد والعادات الثقافية الموروثة للشعوب، والتيار الذي عبر عنه هنتنجتون الذي يمثل على الأخص

أفكار اليمين المسيحي المتطرف كلاهما يشكلان خطرا وتحديا لمشروعات النهضة في العالم الإسلامي.

تحديات داخلية :

إذا كانت التحديات الخارجية تنطوي تحت ما يعرف بالجهاد الأصغر فإن التحديات الداخلية تشكل الجهاد الأكبر. فأمتنا طوال عدة قرون سابقة قد استسلمت لعوامل التخلف من قهر وظلم من قِبل الحكام واستكانة وعبودية من قبل الشعوب، وساد الجهل والفقر والمرض، واستبدلت القيم الإسلامية بقيم الشعوب المنسحقة، فحل الكذب محل الصدق، وهو فريضة إسلامية. وبعد أن كان العمل اليدوي شرفا يحرص عليه الأتقياء والفقهاء، أصبح محتقرا لا يليق إلا بالدهماء، واستبعد جوهر الشريعة من الحكم بين الناس، ولم يبق منها إلا القشور الزائفة. وإذا تكلمنا بالمصطلحات الدارجة والشائعة اليوم فإننا سنركز على ثلاثة تحديات داخلية هامة:

التحدي الأول : الشورى (الديمقراطية)

فإذا كان القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا قد وصف المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم، فلنعترف بأن ذلك لم يتحقق إلا بدرجات متفاوتة في تاريخنا الإسلامي: فقد حكم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان(رض) حكما أبويا يمكن أن نطلق عليه (الاستبداد العادل) نظرا لتقوى الحكام، ولكن ما لبث مع ضعف الوازع الديني عند الحكام والرعية علىٰ السواء أن انقلب إلى ملك عضوض.

ولكن شاء الله أن يترك لنا في فترة الحكم القصيرة التي حكم فيها الإمام علي كرم الله وجهه نموذجا يعبر عن النموذج الأقرب لروح الإسلام. هذا النموذج الذي كان يعتبر نموذجا تقدميا في عصره، ولم يكن العرب ولا كافة الشعوب في ذلك العصر قد تهيأت بعد للارتقاء إلى هذا النموذج، فلم يكتب له الدوام ولا النجاح في عصره، حيث وجد مقاومة وتخاذلا ليس من المسلمين في ذلك العصر فقط، بل ومن غالبية أتباع الإمام أنفسهم.

ونحن نعتبر أن نموذج الإمام علي(ع) يعبر عن قضية الشورى (الديمقراطية) أصدق تعبير، وأنه الأقرب إلى روح وفكر الإسلام. فليس نظام الخلافة الراشدة هو بالضرورة النموذج الإسلامي، الذي علينا أن نسعى لتحقيقه اليوم، بل إن نموذج علي بن أبي طالب(ع) الذي كان يمكن اعتباره نظاما تقدمياً في عصره، ولم ينجح آنذاك لعدم ملائمته لروح العصر، يمكن أن يكون اليوم هو النموذج المنشود أو قريبا من النموذج المنشود والذي يعبر عن روح الإسلام وعن روح العصر.

وقد أعطى علي بن أبي طالب(ع) في خلافته خصائص الحكم الإسلامي المنشود والتي أهمها:

١) إن الخلافة تتم ببيعة المسلمين نهارا جهارا، وليست عملية تتم في اجتماع مغلق كما حدث في سقيفة بني ساعدة، ولا بالوصاية لشخص معين كما أوصى أبو بكر لعمر بن الخطاب ، ولا تنحصر في أفراد كما حصرها عمر في ستة من الصحابة، فقد امتنع علي(ع) عن قبول البيعة له في البداية، حتى رأى إجماع المسلمين عليه وحتى جاءه وجوه الناس، وممثلون عن القبائل من أهل الرأي – الذين شكلوا المعارضة في عهد عثمان بن عفان – وكذلك كبار الصحابة.

٢) ضرب علي(ع) مثالاً فريدا في اقتصار مهمة الحاكم على تنفيذ الشريعة – القانون – وعدم استبداده بالأمر ولو كان محقا، فهو يحكم برأي أصحابه ومشورتهم، وينزل على حكم الأغلبية وإن خالف ذلك رأيه.

وقد رأينا في أخطر المواقف ينفذ هذه السياسة، فقد كان يرى رفض التحكيم، ولكنه نزل على رأي أصحابه، وكان يرى إرسال عبد الله بن عباس ممثلاً عنه في التحكيم، ولكنه نزل على رأي أصحابه وأرسل أبا موسى الأشعري رغم عدم اقتناعه به، وقد رأى العرب – في أغلبهم - أن ذلك كان عجزا من علي بن أبي طالب(ع)، وكان الأجدى له أن يستبد كما استبد أبو بكر وعمر وينفذ رأيه.

بل أدى ذلك للخروج عليه، وهم من بادية العرب الذين لا يحترمون إلاّ المستبد القادر على إنفاذ ما يريد، سواء وافق الناس أو خالفهم. وظلّ الخوارج يرددون «إيتونا بمثل أبي بكر أو عمر»، ولكن ذلك لم يدفع علياً الى تغيير مبادئه، وظل محافظاً على ما يعتقد أنه الحق والصواب، وإن لم يوافق ذلك روح العصر.

٣) أعطى علي(ع) نموذج الحاكم الذي لا يضيق بالمعارضة. بل أثبت في الفقه الإسلامي حق المعارضة في ممارسة نشاطها وإبداء رأيها. فحزب الخوارج رغم آرائهم الشاذة، والتي تصل إلى تكفير الحاكم، بل وتكفير المسلمين، تركهم علي يمارسون نشاطهم ولقاءاتهم ويدعون لأفكارهم، ماداموا لم يخرجوا على الدولة، بمعنى مالم يرفعوا سيفاً أو يتجمعوا في مكان ويستقلوا به، أي ماداموا جزءا من المجتمع فلهم كافة الحرية في أن يفكروا ويجتهدوا أخطأوا أم أصابوا.

بمعنى آخر أن لا يضطهد فرد بسبب فكره ومعتقداته السياسية، وهذا بطبيعة الحال لم يكن مطبقا في نظام الخلافة (بعد انتهاء الخلافة العادلة) حيث لقيت المعارضة السياسية اضطهادا كبيرا على مدى التاريخ العربي الإسلامي.

التحدي الثاني: العدالة الاجتماعية

لقد كان النموذج الذي وضعه رسول الله (ص) يتسم بالعدل الاجتماعي، وبإذابة الفوارق بين أفراد المجتمع الإسلامي، ولقد ضرب الأنصار في المدينة أروع الأمثلة في مؤاخاتهم مع المهاجرين، ولقد رأينا أبو بكر الصديق يساوي بين المسلمين في أعطياتهم، ثم حينما جاء عمر بن الخطاب رأى أن يميز بين المسلمين حسب قربهم من رسول الله(ص) وأسبقيتهم في الهجرة والإيمان.

وحينما تولى علي بن أبي طالب(ع) عاد الأمر إلى التسوية بين الناس في أعطياتهم؛ أي أن النموذج الإسلامي يقترب من مفهوم الاشتراكية الحديثة.

هذا ، فضلا عن أن الإسلام قد كفل حقوقا للفرد منذ ولادته وحتى مماته وجعل له حقا في بيت المال وجعل من واجبات الحاكم أن يرد فضول أموال الأغنياء إلى الفقراء حتى يكاد يتساوى الجميع في المعيشة، وحرم الترف وكل مظاهر السفه في استخدام الملكية الخاصة.

لذلك يجب على فقهاء المسلمين أن ينشغلوا بهذه القضايا التي تعبر عن جوهر الإسلام وتعطي حلولا لمشاكل العالم الاقتصادية والاجتماعية وتقدم نموذجا تحلم البشرية للوصول إليه.

التحدي الثالث: تكريم الإنسان (حقوق الإنسان)

لقد كرم الله الإنسان «.. ولقد كرمنا بني آدم..» [١].

ولقد جعل الإسلام لحقوق الإنسان حرمة كبيرة، فقد رأينا رسول الله يقف في حجة الوداع أمام الكعبة في ذلك اليوم المقدس من أيام المسلمين وينادي في الناس: أتعرفون حرمة يومكم هذا؟!.. أتعرفون حرمة شهركم هذا؟!.. أتعرفون

حرمة بيتكم هذا؟!.. لحرمة دم المسلم وعرضه وماله عند الله كحرمة يومكم هذا وشهركم هذا وبيتكم هذا. وجعل الإسلام من قتل إنسانا ظلما فكأنما قتل الناس جميعا.

هذا عن حرمة الدماء وحرمة المال والعرض، فضلا عن حرمة الدين الذي يمكن أن نسميه اليوم بسيادة القانون فلا أحد فوق القانون، والحق يعلو ولا يعلى عليه.

المخرج!

إذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامي اليوم نجد أنه قد تمزق إلى شعوب غير مترابطة، بل هي أقرب إلى أن تكون متنافرة، وهي في حالة من التخلف والجهل والفقر والمرض على درجات متفاوتة، وقد حوصرت جميعا من القوة الكبرى في العالم بغرض تكريس وضعها الراهن.

وقد شاء الله عزوجل أن تنهض الأمم الأخرى، وأن تتقدم علميا واقتصاديا وعسكريا، حيث أصبحت بعض هذه القوى قادرة على تدمير الحياة على هذا الكوكب، وأصبحت تملك قوة اقتصادية جبارة حيث تفوق ميزانية بعض الشركات الرأسمالية ميزانية كثير من الدول الإسلامية مجتمعة، ورأينا دولا تعدادها أقل من مائة مليون نسمة تملك اقتصادا يفوق اقتصاد العالم الإسلامي مجتمعا. وأصبح التقدم العلمي والتكنولوجي وبالتالي العسكري محتكرا، ويعيش العالم الإسلامي على فضل اختراعاتهم ولا يسمح له بالحصول على أسرار التكنولوجيا. لذلك فكل الذين يفكرون في أن نهضة العالم الإسلامي متوقفة على التوصل إلى القوة القادرة على التغلب على قوى العالم اقتصاديا وعسكريا،

يواجهون طريقا مسدودا يصيبهم بالإحباط والانهزام النفسي، لذلك علينا أن نبحث الأمر بعقلانية، وتقبل لمشيئة الله وحكمته وسننه في الكون. ولكي أوضح ما أرمي إليه سأستشهد بتجربة أمة سابقة لعلها تضيء لنا الطريق.

تجربة أمة بني إسرائيل:

إن قاريء القرآن الكريم يلفت انتباهه هذا التركيز الشديد على تاريخ بني إسرائيل وأنبيائهم بدءا من يعقوب الذي هو إسرائيل، ثم أبنائه الأسباط ودخولهم الى مصر مع يوسف النبي ثم خروجهم من مصر مع موسى وهارون، ثم قصة طالوت وداود وسليمان وأيوب وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، ثم هذا التتبع لسيرة بني إسرائيل، يفسر هذا في رأيي ما جاء في الأثر عن أن أمتنا سوف تحذو حذو بني إسرائيل، حذو النعمل بالنعمل حتى لو كان فيهم من فعل كذا لكان فينا من فعل نفس الشيء.

هذا يعني أن أمتنا ستمر بنفس التجربة، وتتعرض للوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من أخطاء وخطايا أدت إلى أن غضب الله عليهم ونزع النعمة منهم إلى أمة أخرى. فإذا كنا نريد أن نتعلم من تجربة بني إسرائيل فلندرس تاريخهم لنرى أنهم حينما تخلفوا وفشت فيهم الأمراض الاجتماعية وتركوا جوهر الدين وعم فيهم الجهل والظلم والفساد. ماذا فعلوا؟.. لم يفكروا في إصلاح أنفسهم، وفي العودة إلى قيم وأخلاق دينهم، بل ظلوا يلقون باللوم على الآخر ممثلا في الاستعمار البابلي ثم الإغريقي ثم الروماني، حيث كان النسر الروماني معلقا فوق الهيكل علامة الإذلال. فظلوا يحلمون وينتظرون مسيحا ملكا يحمل سيفا ينتقم لهم من كل الشعوب التي قهرتهم وأذلتهم. وحينما

جاءهم نبي الله يحيى رجل الشريعة ووريث يعقوب قال لهم إن العيب فيهم، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ودعاهم إلى التوبة قائلا: «يا أولاد الأفاعي مالي أراكم تهربون من الغضب الآتي؟ اعملوا ثمارا تليق بالتوبة».

ولكنهم لم يكونوا على استعداد للتوبة فقتلوه، ثم جاءهم عيسى عليه السلام فبكّتهم على خطاياهم وأرشدهم إلى أن القضية ليست في الاحتلال الروماني؛ لأنه إن ذهبت روما فسيأتي غيرها ليحتلهم، ماداموا هم على ضعفهم وفسادهم وظلمهم، وأن عليهم إصلاح أنفسهم أولا ليتحقق لهم النصر «إن تنصروا الله ينصركم»[٢] فكذبوه كذلك لأنهم ينتظرون مسيحا ملكا يحمل سيفا ينتقم من كل الأعداء.

واليوم وقد وصل حال المسلمين إلى ماهم عليه من فرقة وفساد حتى أصبح الكذب عادة والرشوة قانونا، والظلم مشاعا، مازالوا يحلمون بالزعيم الأوحد الذي يتحدى كل القوى في العالم لينتقم لما أصاب المسلمين من ذل وقهر. حتى وإن كان هذا الزعيم مثالا للفساد والقسوة والجبروت والظلم، وحتى لو فعل هذا الزعيم بشعبه أضعاف ما فعله المستعمر من تنكيل وقهر واستبداد.

لذلك أرى أن علينا أن نعيد النظر فيما يسمى بالإسلام السياسي. ذلك أن من يريد الإصلاح فليعلم أنه يجلس في مقعد الأنبياء؛ أي أن عليه أن يركز جهده في الإصلاح ما استطاع في أي مجال يختاره، دون أن ينتظر ثمرة عمله على المستوى السياسي؛ لأن الشيء المؤكد أنه لو صلح حال الناس لهيأ الله لهم حكاما عادلين، فكما تكونوا يولّ عليكم. وقد رأينا أنه حينما اختلف أصحاب علي بن أبي طالب(ع) عليه سئل: لماذا اختلف الناس عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر قال : لأنهم كانوا ولاة على مثلي وأنا وال على أمثالكم.

لذلك يجب على دعاة الإسلام أن ينشغلوا بقضايا الإصلاح التربوي والاجتماعي والثقافي والسياسي. وأن تكون قضية الإصلاح هي القضية الأولى والمحورية لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

هذا لا يعني أن علينا أن نستسلم للآخر، ولكن علينا أن نحتفظ بإرادتنا الجهاد الذي هو فريضة على كل مسلم ومسلمة. ولكننا نعلم جميعا أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، ولنتذكر أن الاحتلال العسكري لألمانيا واليابان لم يمنعهما من العمل بجد لتصبحا قوتين أساسيتين على الساحة الدولية، لأنهما لم تنشغلا بالآخر المحتل عن أداء الواجبات المفروضة على شعبيهما لتنهضا. فما الذي منع شعوب أمتنا بعد أن تخلصت من الاستعمار من أن تنهض وتتوحد؟ وما الذي جعلها تقع فريسة لحكام من أبنائها كانوا أحياناً أسوأ وأكثر وبالا من المستعمر؟ إن واجبنا اليوم هو أن ننشغل بقضية الإصلاح. ونريد من فقهائنا أن ينشغلوا بقضايا الإصلاح. فما هو حكم الذي يضع العقبات أمام توحد المسلمين ولو اقتصاديا؟ وماهو حكم من يجعل مصلحته الشخصية أومصلحة وطنه كما يراها عقبة أمام مصالح الأمة؟ وما هو حكم من يلي أمرا من أمور المسلمين فيستغل ذلك لمصلحته؟ وما هو واجب المسلمين تجاه أنفسهم وأهليهم وجيرانهم وشعوبهم وأمتهم؟

إننا لسنا في حاجة إلى ثورات جديدة لأن المستعمر قد خرج وتحكم اليوم بأبنائنا. ولكننا في حاجة إلى أن نثور على أنفسنا وعلى تخلفنا وعلى ظلمنا وأن نعود إلى جوهر الإسلام كدين للمحبة والإخاء والمساواة، دين أرسله الله رحمة للعالمين.

غزو العراق وطفولة العقل في العالم الإسلامي

يقول السيد المسيح لأمته التي كانت تمر بظروف مشابهة لما تمر به أمتنا اليوم: «.. فتشوا الكتب فإن لكم فيها حياة..».

إن قارئ التاريخ يدرك حكمة ماجاء في الآية الكريمة: «فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين..» (٣).

وقوله تعالى: «.. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز..» (٤).

فمن سنن الله التي لا تتبدل منذ أن خلق الإنسان على هذا الكوكب أن جعل تدافعا دائما بين القوي والضعيف وبين من يملك ومن لا يملك وبين الخير والشر، وسيستمر هذا التدافع حتى تنتهي هذه الملحمة البشرية.

فحينما تنهض أمة تكون مفعمة بالنشاط والحيوية وحب العمل، وتضيق أرضها عن تحقيق طموحاتها، فتتلفت حولها لتجد أمما قد سادها الكسل وسيطر عليها الضعف والمرض والاستنامة إلى الشهوات، وعمها الظلم والفساد. فتجد الأمة الفتية نفسها مرتاحة الضمير وهي تتوسع على حساب الأمم الضعيفة، مستغلة ثرواتها التي هي نعمة من الله ضعيها أصحابها ولم يحسنوا استغلالها. حينئذ تدرك الأمم الضعيفة عاقبة فساد أحوالها فتحاول أن تنهض وأن تصحح أخطاءها . ومن هنا تتضح حكمة سنة الله في دفع الناس بعضهم ببعض.

والأمم في تخلفها يتخلف فيها العقل ويرتد إلى مرحلة الطفولة، ومن خصائص عقل الطفل أنه يصدق الأكاذيب، خاصة إذا وافقت هواه، وأنه

ينصت للصوت العالي وإن كان كاذبا. ولا ينصت إلى الصوت الهادئ، ولو كان صادقا وحكيما، وأنه لا يميز بين ما يضره وما ينفعه، وينفر مما يثير فيه الفكر ويدعوه إلى الفطام عن شهواته، وينجذب لكل ما يدعوه إلى اللهو والكسل والغفلة.

ولقد جاء غزو العراق كاشفا لهذا الأمر، فالغرب منذ نهضته قد خرج من أرضه ليستعمر شعوبا سادها التخلف والعجز، وليس صحيحا أن معارضة روسيا وفرنسا وألمانيا والصين وغيرهم كانت نابعة من قيم ومبادئ ثابتة، فقد سبقت هذه الدول أمريكا في غزو العالم الإسلامي وتقطيع أوصاله. إنما حقيقة الأمر أنه اختلاف في المصالح مالبث أن زال حينما سويت هذه المصالح. هذا جانب كشفته أحداث غزو العراق.

وعلى الجانب الآخر فإن العالم الإسلامي بدأ يستيقظ مع تعرضه للموجات المتتالية للاستعمار، وبدأ يفكر في أسباب تخلفه وتقدم الأمم الأخرى، وظهرت فيه حركات المقاومة موازية لحركات الإصلاح الداخلي، حتى تمكنت غالبية شعوبه من الحصول على استقلالها وخروج المستعمر من أراضيها، وحكمت بحكومات من أبنائها، مالبثت أن ألقت أسلحتها: أسلحة المقاومة وأسلحة الإصلاح. وظنت أنها قد وصلت إلى ما تصبو إليه. ورفعت شعارات البحث عن الحقوق الضائعة. واستبعدت الشعارات التي كانت تنادي بضرورة البحث عن الواجبات الضائعة ونسي حكماؤها ومفكروها جوهر القضية، وهو لماذا تخلفنا وتقدم غيرنا؟! وانشغلوا بالتنظير للأنظمة التي ينتمون إليها فكريا، قومية أو إسلامية أو شيوعية أو علمانية. فبقيت الأمة على حالها وبقيت الشعوب على تخلفها، وأصبحت القضية هي من يسيطر على الحكم. القوميون أم الإسلاميون أم العلمانيون أم الشيوعيون؟

واستبعدت قضايا الإصلاح من فكر النخبة المثقفة، ونسي الجميع أن أمهر البنائين لن يستطيعوا أن يقيموا بناء قويا إذا كانت الأحجار التي يبنون بها أحجارا غير صالحة، أما إذا كانت الأحجار صالحة فإنه من السهل أن تبنى بها مبان مختلفة، قد تختلف في عظمتها وقوتها، ولكنها تظل كلها مباني صالحة.

ولكي تداري هذه الأنظمة الحاكمة وكهنتها من المثقفين عجزها وفشلها في استنهاض الأمة، ألقت دائما باللوم على الآخر ومؤامراته لإفشال خططها، علما بأن الآخر لم ولن يتغير ،فهو في نشاطه وحيويته كان ومازال وسيظل يبحث عن مصالحه، إيمانا منه بأنه الأفضل، وأنه يستحق أن ينال مايريد كثمرة لمجهوداته عن عمله وعما وصل إليه من تقدم اجتماعي وسياسي وعلمي وعسكري.

وصدّقت الشعوب الإسلامية أنها قد وصلت إلى ماتصبو إليه بخروج المستعمر من أراضيها، وأن عليها أن تبحث عن حقوقها الضائعة، فانغمست في حمى استهلاكية وتسابق أبناؤها في البحث عن المال بكل طرق مشروعة وغير مشروعة، ونسيت الشعوب واجباتها، ففقد العمل قدسيته واختلت موازين القيم، وعادت الأمة التي كانت قد بدأت تستيقظ إلى الدخول في سبات عميق، واختفت شعارات الإصلاح التي ظهرت مع بداية نهضة الأمة، ورفعت الشعارات الزائفة التي استمرأتها الشعوب، لأنها رفعت عن كاهلها الشعور بالواجب وضرورة بذل الجهد والمعاناة اللازمة لتغيير الواقع، وحصرت كل المشاكل في قضية الآخر الذي تقدم بفعل عمله وجهده. وأصبحت الأمة الإسلامية التي كان من الواجب على أبنائها العمل بجد يفوق عمل وجد الأمم المتقدمة لكي تلحق بها أو تسبقها، تكاد لا تعمل معشار العمل الذي يقوم به أبناء الأمم الأخرى، في نفس الوقت الذي تسابق فيه الأمم المتقدمة في الاستهلاك، فتجد شعبا إسلاميا

يستخدم أبناؤه المحمول بنسبة تفوق استخدامه في الشعوب التي اخترعته، وتجد نسبة السيارات الفاخرة التي تستخدم أكبر من نسبتها في الدول التي تصنعها.

شروط النصر:

لقد وضع القرآن الكريم شرطا أساسيا للنصر وهو «... إن تنصروا الله ينصركم..» [٥]. وعبر عن ذلك عمر بن الخطاب حين قال: «.. لئن أتى الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا..» وكذلك فهم الصحابة جوهر التدافع الحضاري فكانوا يرددون دائما أنهم ينتصرون على عدوهم بطاعتهم لله وبمعصية عدوهم لله.

أما أن تعتقد الأمة بأنها ستنهض وستنتصر في معاركها دون أن تؤدي ما عليها من واجبات فهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه الأمم السابقة، والتي جعلت بني إسرائيل ينتظرون مسيحا ملكا يحمل سيفا ينتقم من كل الأمم، دون أن يدركوا أن العيب فيهم، وأن الله لا ينصر إلا القوم الصالحين. «.. وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض...»[٦]

ما السبيل؟

علينا أن نعي أننا إذا كنا نتشرف بأننا من أتباع آخر الديانات السماوية فإن هذا الدين قد جاء رحمة للعالمين. وإذا لم يؤت هذا الدين ثماره بيننا فليس من حقنا أن نبشر به بين الأمم، بل علينا أن ننكفئ على أنفسنا باذلين غاية الجهد والجهاد في سبيل تحقيق جوهر الإسلام فيما بيننا لكي نصبح بين الأمم كالشامة البيضاء، كما أمرنا رسول الله، وقديما انتشر الإسلام بأخلاق المسلمين.

وأن نخرج إلى العالم بروح جديدة وقلوب مملوءة بالمحبة ورغبة في العطاء للمساهمة في رخاء البشرية وسعادتها، وأن نقدم الإسلام كدين جاء رحمة للعالمين. فيه حلول لمشكلات العالم، وعلاج لأدوائه، ولكن ذلك لا يتم إلا إذا أثبتنا للآخرين أن هذا الدين قد عالجنا نحن أولا، وساهم في حل مشاكلنا. وأن نرفع شعار أنه لا تصادم بين الحضارات، بل هناك تدافعا حضاريا، هو بمعنى آخر تسابق نحو تحرير الإنسان وإصلاحه وإعطائه الأمن والسلام، وأنه لا خصومة بين الأديان، بل هي منافسة شريفة نحو الأفضل والأصلح.

ولننظر إلى الخطاب القرآني الموجه للناس كافة على اختلاف أديانهم وألسنتهم «.. يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير..» [٧].

وهو هنا يتكلم عن الناس جميعا، فخير الناس هو أكثرهم نفعا للناس.

إذن لا مخرج لأمتنا سوى أن تنكفئ على نفسها، رافعة شعارات أداء الواجبات، وأن نثبت للعالم أن هذا الدين الذي أرسله الله رحمة للعالمين قد شفانا من أمراضنا، وحقق بيننا العدل، وطهرنا من نقائصنا، فأصبحنا مجتمعات يسودها السلام والمحبة والإخاء والمساواة، مجتمعا كالشامة البيضاء... «.. محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما..» [٨] حينئذ سيتحقق لنا النصر ويكون من حقنا أن ندعوا إلى هذا الدين الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

الهوامش:

١ - الإسراء / ٧٠ .

٢- محمد / ٧ .

[٣] - البقرة/ ٢٥١ .

[٤] - الحج/ ٤٠ .

[٥] - محمد / ٧ .

[٦] - النور/ ٥٥ .

[٧] - الحجرات/ ١٣ .

[٨] - الفتح/ ٢٩ .